قصة قصيرة

رجل.. تحبه المدينة

يوسف الحيدري

تلفت حواليه مسروراً.. وكان بقصر قامته ونحوله ولون جلده البني الداكن أشبه بطفل كبير.. كانت عيناه الجاحظتان الواسعتان وأنفه المنقاري هي أبرز ما في وجهه المتغضن من ملامح.. تنحنح.. ثم ضحك ضحكة مفاجئة لا معنى لها. وكانت خرخشة صدره من أثر التدخين تسمع بوضوح مع ضحكته.. وأخيراً كفّ عن الحركة وأخذ يتكلم.. ودون أن يعترض على كلامه أحد.. كانوا يرتاحون لأحاديثه ومغامراته الوهمية ويجدون فيها نوعاً من الترفيه عن أنفسهم ووسيلة بريئة لدفع الملل عن صدورهم. فكانوا يوافقونه على كل كلمة يتفوه بها.. ودون أن يفكر أحدهم أو حتى يجرؤ على مقاطعته أو مناقشته.. لذلك كانت هزات رؤوسهم وهم يتابعونه خير دليل على تصديقهم إياه ولو ظاهرياً.. مما كان يحفزه أكثر للخوض في معارك وهمية يجسدها بحركاته الغريبة.. وكأنه على خشبة مسرح.!

* * *

كانت الضحكات تجلجل الآن وتهز المكان. فقد بلغ أبو صادق في سرده للمغامرة حداً من الانديا‌ح والعنف بحيث فقد معه الرجل اتزانه فوقف على ساقيه الواهنتين يحدق في وجوه الجمع بنظرات تقدح انفعالاً.. وهو يتوعد ويهدد ويصرخ:

ـ ملعون الوالدين.. لم يخجل مني.. ولا من الجالسين في «الباص» ولا احترم السيدة الوقور. حين صرخ في وجهها.. بكل وقاحة: «إذا كنت تخافين من سرعة سياقة السيارة.. ونحن على عجل من أمرنا.. فلماذا لم تؤجري لك سيارة خاصة؟!»

خفضت السيدة رأسها حياءً فلم تجبه.. غير أنني لم أتجرع هذا الموقف اللاإنساني فهجمت عليه كذئب هائج وبهذه اليد القوية بدأتُ ألوي فمه.. وأبرمه.. حتى بدا بلا فم.. بل تحول فمه إلى شيء أشبه ببوز الخنزير البري.. وراحت الدماء تسيل منه.. وصاح الركاب وهم مصعوقون من جرأتي: «بارك الله فيك يا رجل.. هكذا تكون الرجولة وإلا.. فلا..» أما ذلك الجبان.. فقد غادر «الباص» عند أول نقطة وقوف.. مخذولاً.. كسيراً.. وكانت السيدة الآن تأكلني بنظرات الاعجاب الممتنّة وهي تقطر سعادة.. وسرت الهمسات بين الركاب لدقائق طويلة..

صمت الجميع وهم يحبسون في صدورهم ضحكات عنيفة تكاد تنفجر في أي لحظة.. حتى أن البعض لم يستطيعوا الاحتمال.. فغادروا المقهى بحجج واهية ليفرغوا ما في صدورهم من ضحكات خارج المقهى ودون أن يحرجوا أبا صادق أما البقية فقد افتعلوا نكتة باردة ليفرغوا من خلالها ما في صدورهم.. فضحكوا.. والغريب أن أبا صادق كان أكثرهم ضحكاً..!

* * *

الهدوء يلف المكان والحرارة بدأت تخفت تدريجاً بعد أن خيّم الظلام.. وكانت المصابيح الكبيرة الفضية تضيء مساحات كبيرة من الشارع العريض، الذي تقبع عند منعطف منه دار «أبو صادق» الكبيرة، الذي ترك مساحة لا بأس بها ليصنع منها حديقة جميلة.. يقضي ساعات طويلة في العناية بها.. حين يعود من الدائرة. وقد زهت الحديقة على يديه فراحت تعطر المكان بروائح الأزهار المختلفة حيث يعبق الجو على مبعدة أمتار عديدة من بيته!

كانت بضع أرائك وكراسي مصفوفة على امتداد المساحة التي تشكل مدخل الحديقة المؤدي إلى بداية «الطارمة» المسقّفة.. كان أبو صادق كالعادة يصخب ويتحدث ودون أن يكف عن الحركة وكأنه يستعد لأداء دور منوط إليه في مسرحية ما.. ينتظر رفع الستارة.. ليبهر الجمهور.. كعادته!

كان جاره سلطان يغمز لي.. ويضحك وهو يوجّه كلامه إليه بأسلوب استفزازي:

ـ مستحيل أن يحدث هذا.. كيف استطعت قفز القناة.. بينما يبلغ عرضها أكثر من عشرة أمتار.. هل تعقلون هذا.. يا ناس.. هه؟!

علقت أم صادق على كلام جارها سلطان وهي تضحك:

ـ لم لا تصدقه يا سلطان؟ أي جار عاق أنت! يبدو أنك تغار منه...

ـ أنا أغار من أبي صادق؟ هاهاها..

كان أبو صادق الآن متشنجاً.. يذرع مساحة الثيل الأخضر طولاً.. وكأنما ليحدد بذلك المسافة المقاربة لعرض نهر القناة.. وبعد أن وضع قطعة من خرقة بيضاء على طرفي المسافة المحددة.. التفت وبعصبية ظاهرة إلى جاره المشاكس سلطان ـ الذي كان جالساً على الأريكة.. منتشياً وقد ارتسمت على وجهه المكتنز ابتسامة عريضة. ساخرة:

ـ ها.. ماذا تقول.. أليست المسافة المحصورة بين الحزقتين هي مقاربة للمسافة بين ضفتي القناة؟.. والآن.. فلير ويشهد الجميع كيف أقفزها بخفة الغزال.!

قال سلطان وهو يكلم الجالسين وكان عددهم يربو على العشرة أشخاص من جيران وأصدقاء أبي صادق حضروا لتهنئته بمناسبة نجاح ابنه..

ـ يا جماعة.. إنني أراهن وعلى خمسة دنانير.. إذا ما قفز أبو صادق هذه المسافة.. وهو بهذا العمر المتقدم..!

ثار أبو صادق.. وأرغى وأزبد.. وراح يحرك ذراعيه النحيلتين حركات بهلوانية غريبة. وكأنما يصارع أشباحاً تزعجه.. في حين كان سلطان يغمز بعينه للجالسين الذين بدأوا يصخبون ويعلقون.. ويحاولون في نفس الوقت تهدئة الأمور ومنع الرجل من تنفيذ محاولته الجنونية هذه..

كانت الأنظار جميعاً موجهة الآن إلى أبي صادق الذي ارتد إلى الخلف متهيئاً للقفز، في الوقت الذي انشغلت فيه أم صادق في حديث قصير مع أحد الجالسين لمنع الرجل من تنفيذ هذه الحركة الجنونية... وبذلك نسيت أن تنبّه زوجها المهووس حول وجود حبل الغسيل المتوتر الذي يخترق المساحة التي سيقفزها الرجل وعلى ارتفاع مترين حيث لا يرى بوضوح ما لم ينتبه اليه المرء.. لكثافة الظلمة ولكون المصباح المثبت وسط سقف الرواق لا يكاد يضيء تلك المنطقة بالتحديد.. وهكذا.. وفي حركة بهلوانية سريعة وكضفدع عجوز قفز أبو صادق، وبكل ما في كيانه الواهي من قوة، ليسقط سقطة مريعة بعد أن اصطدم بالحبل المتوتر.. كان مستلقياً على ظهره وسط الحديقة.. بعد أن سمع لسقوطه صوت غريب.. حتى أنه لم يستطع كبت ذلك الصوت المزعج.. فراح الجميع يضحكون ضحكات عالية.. وتقدم أكثر من رجل لمساعدته على النهوض، غير أنه رفض ذلك بعناد بغلي وهو يتميز غيظاً ويلعن سنسفيل أجداد الذين ربطوا الحبل اللعين.. حاول وهو يقف على قدميه بصعوبة إعادة المحاولة ولكنهم منعوه بقوة.. وكان سلطان الآن في أوج سروره، غير أنه رغم ذلك تقدم نحوه مواسياً.. بعد أن أيقن من أن صديقه القديم أبا صادق قد تأذى فعلاً وبأنه كان وبشكل ما سبباً في كل ما حدث للرجل من إحراج.. وهكذا انتهت المغامرة بفشل ذريع.. هدأ الضجيج.. ثم ساد صمت ثقيل.. كان أبو صادق الآن حزيناً.. حتى أنه لم ينطق بحرف واحد.. إلى أن غادره الأصدقاء.. بعد أن تمنوا لصادق كل الخير..!

* * *

تمر الأيام وينسى أبو صادق آثار تلك الخيبة والسقطة اللعينة غير المتوقعة.. فنراه الآن جالساً وسط حلقة من الشباب، وفي مقهى شعبي صغير وقد أحاطوه كالسوار وهم يحاولون جرّه إلى حديث ممتع أو سرد مغامرة من مغامراته الكثيرة الموهومة والممتعة حقاً.. احتار أبو صادق. كيف يبدأ.. وكيف ينتهي بعد أن نفد ما في جعبته من حكايات لذلك النهار.. وبدأت الحلقة تضيق والمستمعون يزدادون.. صاح فيهم أبو صادق وعلى حين غرة.. وهو يتصنع الغضب:

ـ دعوني أفكر يا جماعة.. فالمغامرات كثيرة وعليّ أن أختار الجديد دائماً.. فلكل جديد حلاوة. وكما يقول المثل.. ثم لست أدري لماذا ألمح على وجوه البعض علامات الشك والريبة حول مصداقية ما أحكي.. فأنا لست مضطراً على أي حال للقَسَم حول أي حديث أو مغامرة.. قمت بها.. فأنتم أحرار في تصديقي أو تكذيبي.. ثم.. أنا لست رجلاً عادياً.. فالمدينة كلها تعرف من هو أبو صادق.. الجميع يحبّون أبا صادق.. لقد تلمست ذلك جيداً.. الصغار يحبونني والكبار.. والنساء.. والشيوخ.. المدينة كلها تحبني.. فأنا رجل تحبه المدينة.. وتحترمه.. غير أن شخصاً واحداً هو الذي يقف على النقيض من كل هذا.. رغم أنه أحب شخص إليّ في هذا العالم.. ولا أملك سواه.. إنه ولدي صادق.. فهو دائم الشكوى والتذمر من أنني لا أجيد التصرف بشكل عقلاني.. تصوروا.. إنه لا يرتاح لجلوسي مع الآخرين فهو يهجس بأنني.. إنما أروي للآخرين كل ما هو غير حقيقي.. أي ببساطة.. إنه يكاد يتهمني علناً بالكذب.. أي جيل غريب هذا الذي سيخلفنا..!.. لقد خلقت هكذا صريحاً.. لا أحتمل الزيف أو الخطأ.. أنا مع الصدق والطيبة دائماً.. ولأجل الصدق أسميت ولدي الوحيد (صادقاً).. ما علينا.. والآن هل أنتم على استعداد يا شباب لسماع.. مغامرتي الشهيرة في الصحراء؟

هتف الجميع دفعة واحدة.. والبشر يطفح من عيونهم:

ـ هيا.. هيا.. يا أبا صادق.. فكلنا آذان صاغية.!

وفي فورة الحماس نادى أحدهم على أقداح جديدة الشاي الساخن.. تنحنح أبو صادق قليلاً.. ثم حدق في وجوه جلسائه وكأنه يراهم لأول مرة.. ثم قال:

ـ كان ذلك في صيف عام ١٩٥٠.. وكنا مع بعض الأصدقاء في سفرة إلى الأردن عندما أضعنا الطريق وتهنا في الصحراء.. لمدة ثلاثة أيام حتى مات إثنان من أصدقائنا عطشاً.. وفي اليوم الرابع لم يبق سواي.. كنت حائراً.. أبحث عن مخرج من هذا الخطر المحيق بي.. ها هو الموت يتربص بي.. فلم لا أكون أقوى منه.. أنا أبو صادق. وهكذا قررت أن أزحف على بطني.. حتى كادت امعائي تندلق.. وتتمزق.. غير أنني قاومت كل تلك العذابات الجسدية والنفسية.. بقوتي الخارقة وغير الطبيعية!

ـ كيف يحدث هذا.. أربعة أيام بلا قطرة ماء واحدة. ها.؟!

علت وجه أبي صادق غبرة مفاجئة فعقد حاجبيه وهو يرمي السائل بنظرات تقدح ناراً.. وصرخ:

ـ يبدو أنك لا تصدقني.. هه؟

ـ آسف جداً.. ثق أنا لم أتعمد تكذيبك.. ولكن فقط وددت أن أعرف.. كيف نجوت.. و..

ـ يبدو أنك لا تعرفني جيداً.. فأنا أدعى أبو صادق وكفى.. أما كيف نجوت من الموت المحقق.. فإن السماء وحدها هي التي أشفقت على حالي.. حيث لمحت فجأة بضعة غزلان.. على مبعدة أمتار فقط مني.. وظننت أن كل هذا ليس سوى مجرد سراب.. غير أن غزالة أومأت إليّ برأسها.. فزحفت نحوها وإذا بها تصحبني.. إلى عين ماء كالزلال.. فشربت منها حتى ارتويت.. وهكذا نجوت.. وبعد أن التهمت بعض الأعشاب.. دبّ في جسدي نشاط غريب.. وكنت الآن في طرف الصحراء.. وهكذا دخلت أقرب مدينة حدودية.. وعلى شفاهي علامات الانتصار.. والحياة.. وهكذا قهرت الصحراء.. و..

ـ أبو صادق.

ـ نعم..

ـ أ..أ.. وهل تعرفك الغزلان أيضاً!؟

فرقعت ضحكة عنيفة.. لتتبعها ضحكات هادرة.. كانت مخنوقة.. وكان أبو صادق يشارك الجميع ضحكاتهم المدوية.. ودون أن يدري لماذا.. بل ودون أن يجيب عن السؤال المحرج.. وغير المتوقع..!!

* * *

كان الجميع يتوددون إليه ويحاولون استرضاءه وكسب ودّه بأية طريقة كانت.. وكان يجد صعوبة كبيرة وهو يخترق سوق المدينة القديمة حيث تنهال عليه دعوات الجلوس لشرب قدح من شاي ساخن أو كأس من عصير مثلج.. وكان يعتذر دائماً عن تلبية كل تلك الطلبات التي تجسد ما له من حب ومكانة في قلوب الآخرين مما يملؤه زهواً وفرحاً.. لذلك نادراً ما كنت تراه منشغلاً بسوى الحديث عن نفسه. عن مغامراته التي لا تنتهي وغزارة معلوماته وخاصة في مادة التاريخ حيث كان يروي وبدقة عجيبة أحداثاً تاريخية بعيدة جداً.. وبانفعال غريب وكأنه عاش وسط أحداثها المتشابكة فعلاً..!

* * *

مرت أسابيع عديدة دون أن يظهر لأبي صادق أي أثر.. وتوقع الجميع أن يكون وراء هذه الغيبة الطويلة سبب هام جداً.. وإلا فانه لا يطيق الغياب عن المقهى.. والأصدقاء.. ولو ليوم واحد.. إذ لم تكن لتفوته جولة واحدة كل يوم سواء كانت الجولة المذكورة صباحية أم مسائية.. يتفقد خلالها أصدقاءه على طول الحوانيت المنتشرة حول طرفي الشارع الرئيس في محلته.. كان لهذا الغياب المفاجيء وقعه الشديد على نفوس أصدقائه ومحبيه الكثيرين.. فأخذوا يقلقون فعلاً حول سبب هذا الغياب.. غير أنه كان من الطبيعي جداً أن ينجلي الغموض ويعرف السبب.. وحدث فعلاً ذلك.. حين جاء أبو جاسم.. صديق أبي صادق الأثير.. ليعلن للجماعة وبلهجة لا تخلو من عتاب مرير:

ـ يا جماعة.. أبو صادق يرقد في المستشفى.. وتجري له عملية جراحية كبيرة... تستأصل فيها ربع معدته.. ولا يسأل عنه أحد.. أهكذا تكون الصداقة.. واآسفي عليكم؟!

غمر الجميع ذهول وراح الواحد منهم يحدق في وجه الآخر وكأنما ليدينه.. ويلصق به تهمة العقوق وقلة الوفاء.. وسرت غمغمة بين الحضور مع علامات خجل بادية على الوجوه.. وتمخضت الغمغمات أخيراً عن اتفاق جماعي لزيارته في أقرب فرصة والإعتذار منه لهذا التقصير غير المتعمد.. ولا سيما وهو على وشك الخروج من المستشفى لقضاء فترة نقاهة.. وكما وضّح أبو جاسم..

* * *

كنت مع الذين زاروا أبا صادق عصر اليوم التالي.. كان راقداً فوق سرير عريض متحرك.. حاول القيام غير أننا منعناه من ذلك.. وكان قد فقد الكثير من وزنه فبدا كشلو مقذوف وسط السرير.. يتألم.. ولكنه يحاول أن يبدو أمامنا قوياً. ولم يكف لحظة عن التكلم بصوته الواهن الكسير. حاول أحد الزائرين أن يضع حداً لحديث قد يطول فيسبب له مزيداً من الآلام.. أو.. الإحراج.. ولا سيما وأفراد أسرته يحيطون سريره.. قال متسائلاً:

ـ هل تعلم يا أبا صادق أن فريقك المفضل قد خسر مباراة الأمس.. رغم أنه تفوق على الفريق الخصم لعباً.. وعلى مدى الشوطين.. غير أن الحظ لم يواته!

انتفض أبو صادق كمن لدغته حشرة سامة.. وكاد يقفز من السرير.. وقد بان الغضب على وجهه الشاحب..

ـ تافهون.. لا يعرفون طريقة اللعب الصحيح.. جيلنا الأصيل

هو وحده الذي كان يعرف معنى اللعب الحقيقي.. قبل ثلاثين عاماً.. كنت ألعب في مركز الهجوم ضمن فريقنا الشهير ـ الهلال الذهبي ـ.. لم تكن اللعبة لتختتم مع أي فريق يواجهنا.. إلا وقد سددت الى مرمى الفريق الخصم أكثر من قذيفة تهز الشباك.. بل وتمزقه..! بدا الجميع ذاهلين وهم يحدقون في وجوه بعضهم.. محاولين كبت ضحكات عنيفة تفور داخل صدورهم.. وحين لاحظ أبو صادق صمت الجميع ودهشتهم.. أضاف وبحماسة غريبة بعد أن أزاح ثوبه عن ساق نحيلة وكأنها قصبة متهرئة جوفاء وقال.. وهو يشير بإصبعه النحيلة:

ـ هذه الساق الرهيبة صنعت العجائب في ملاعب الكرة.. ولسنوات طويلة.. وكاد الخصوم أن يكسروها في أكثر من محاولة متعمدة.. حتى فرغ صبر مدربنا فصاح في وجه أحد اللاعبين الخصوم.. والذي تعمد إيذائي لأكثر من محاولة..

ـ كفى لعباً بهذه الخشونة.. سأسحب الفريق من المباراة.. هل تتعمدون كسر هذه الساق الذهبية.. وهي مفخرة فريقنا.. وعنوان انتصاراتنا المتتالية؟!

أطلق أحدهم وبذكاء نكتة سريعة.. بددنا من خلالها ضحكاتنا المخنوقة.. وأخيراً.. غادرنا صديقنا الحبيب ونحن نتمنى له الشفاء السريع والعودة إلى المقهى كالعادة.. بعد دقائق.. كنا نواجه أنسام المساء المنعشة.. وكانت بناية المستشفى بطوابقها العديدة ومئات النوافذ المزروعة على واجهتها.. تبدو كحيوان خرافي.. هائل!

* * *

كذبة كبيرة ومغامرة مدهشة.. بدأ يسجلها محمود في دفتره الصغير. فمن عادته تدوين الأكاذيب الكبيرة.. والنادرة. وعلى شكل رؤوس نقاط.. ليتفرغ لقراءتها واسترجاع تفاصيلها الدقيقة كلما ضاق صدره أو أحسّ بالضجر.. ولا يتوانى عن إضفاء بعض الهوامش على تلك الحكايات والمغامرات الوهمية التي يخوضها أبو صادق بغية إثارة أكبر قدر من الضحك عندما يرويها لأصدقائه في غياب أبي صادق. وهكذا وبعد إحصاء دقيق وجد نفسه وقد جمع أكثر من مائة حكاية ومغامرة! وكان يحسّ بعد انتهائه من رواية مغامرة أو حكاية ما.. بنوع من تأنيب الضمير.. حين يتصور نفسه.. ضئيلاً.. إزاء صديقه القديم.. والذي كان يكنّ له كل.. الحب ولا يكاد يفارق مجلسه ساعة واحدة.. ولكن...

* * *

في احتفال حقيقي بهيج.. استقبلت الجماعة أبا صادق وهو يغادر المستشفى.. حيث انهمرت عليه الهدايا والعواطف النبيلة.. والتي عاشها بصدق وانفعال كبيرين.. ولم ينقطع سيل التمنيات بالشفاء التام لأكثر من أسبوع.. وكانت الزيارات المتواصلة له فرصاً ذهبية لسرد المزيد من البطولات التي تركزت بشكل أساسي حول تفاصيل العملية الجراحية الكبيرة التي أجريت له.. وكان دقيقاً في سرد التفاصيل وكأنما لم يكن مخدّراً خلال العملية.. حتى أن أحد زائريه لم يحتمل ذلك فسأله مستنكراً:

ـ ما هذا يا رجل.. لقد تماديت.. وكأنك تستهين بنا.. كيف رأيت العملية.. وأنت تحت تأثير المخدر.؟!

انتفض أبو صادق.. وهو يأكل السائل بنظراته النارية:

ـ وهل تكذبني. وأنا في هذه السّن المتقدمة.. هه.. ودون أن تحترم هذه الشيبة في الرأس؟

ـ ولكن.. يا..

ـ لا.. لكن ولا هم يحزنون.. هنالك أكثر من شخص كان حاضراً أثناء العملية.. لقد أصررت.. وأقسمت لهم.. بأن يجروا العملية دون مخدر!

ـ و.. أ.. أ.. ولكن..

ـ ولا كلمة.. أرجوك.. يبدو أنك ورغم هذه العلاقة الطويلة بيننا.. لم تفهمني بشكل حقيقي.. أنا أبو صادق.. قاهر الصحراء.. أقوى من الألم!

وجم الجلوس وسرى بينهم هاجس خفي.. حول قدرات الرجل العقلية.. ربما أجهز الخوف من العملية الخطيرة على البقية الباقية من توازنه العقلي.. من يدري.. غير أن صديقه المقرب جداً أبا جاسم روى الكثير عن قلقه واضطرابه قبل العملية بيوم واحد..!

تأمل وجهه في المرآة. ذات العدسة المكبرة.. وراحت أصابعه المعروقة تمر على الأخاديد العميقة التي تركتها السنوات والأيام الصعبة التي عاشها.. بدا نحيلاً جداً.. حيث أجهز المرض اللعين على البقية الباقية من لحم كان يغطي جسده الأسمر الداكن.. فبدا ممصوصاً وبرزت عيناه الجاحظتان وأنفه المنقاري وكأنها بروزات طارئة فوق وجهه الذابل.. زفر من الأعماق وهو يشهد غياب بقايا الشعرات السوداء في رأسه وضياعها وسط بياض بدأ ينصع.. ويلمع.. وأيقن من غياب ذلك الألق السابق المشع من عينيه الواسعتين.. أخذ يخاطب نفسه.. وهو مستلق على ظهره.. والمرآة ما تزال في يده:

ـ هيه.. أيها الزمن القاهر.. يا من تحطم أصلب الرجال.. هكذا صرعتني قبل الأوان.. حتى تحولت الى مجرد قصبة جوفاء.. لقد سحقت حتى عظامي.. غير أنك فشلت في قهر روحي.. أو عنفوان مخيلتي.. فما زلت ذلك الرجل الذي يهابه ويحبه الجميع.. فأنا رجل تحبه المدينة كلها.. لأنه يحبها.. يحب نهرها الدافق وشوارعها وبيوتاتها الرائعة.. أنا كما أنا وسأظل هكذا الى آخر شهقة في صدري المنخور.. صادقاً، صريحاً، جريئاً..

قد أبالغ كثيراً في كلامي.. ولكن الكثير مما أقوله هو الصدق بعينه!. ماذا أفعل هكذا خلقت؟. إنساناً يملك طاقة خيالية كبيرة في تجسيد الأحداث.. ماذا أفعل إذا كان الآخرون يجدون سعادتهم

في الإصغاء إليّ.. لم يجادلني أحد في حكاية من حكاياتي.. أو يضع أحدهم حداً لاندفاعي اللامعقول أحياناً في سرد تلك الحكايات.. لقد ساهم الجميع في تحطيمي ودون قصد في الإساءة إليّ.. بل حباً بي.. هذا الحب الذي دمرني أخيراً.. وشوّه صورتي الاجتماعية.. لقد وقف البعض في وجهي مرة أو مرتين.. ولكن ضعفهم وتخاذلهم أمام غضبتي وحماقتي دفعني أكثر فأكثر للإيغال في تكبير صورتي الحقيقية البسيطة والعادية.. والنقية جداً.. لقد عشت بالأمس فقط أكثر لحظاتي صدقاً حين كذبني صديقي الشجاع.. وأنا أتحدث عن إجراء العملية دون مخدّر.. وقد هالني إصراره على عدم تصديقي.. مما سبّب هزّة في كياني رجّني رجّاً.. وأعاد لي توازني العقلي والروحي الذي فقدتهما منذ سنوات طويلة.. فصحوت من غيبوبة طويلة.. كان عليّ أن أحتضنه.. أقبله.. لا أن أثور في وجهه بحمق رحت أخجل منه. كنت لحظتها مرعوباً بعد أن تخيلت للحظات مدمرة بأنني أفقد هيبتي أمام الجميع.. كنت المخطِىء والخاسر معاً.. وهكذا صحوت أخيراً.

صمت أبو صادق فجأة حين رأى الوجه الآخر في المرآة يخاطبه قائلاً:

ـ لا.. لا تتكلم هكذا.. يا رجل.. لا.. لا..

ـ دعني أعذب نفسي.. دعني أتطهر.. لقد جنيت على أعز الناس إليّ.. لقد جنيت على وحيدي وحبيبي صادق.. الذي يأكله الألم بصمت بعد أن ردّني أعز أصدقائي حين تقدمت طالباً يد ابنته التي يحبها ولدي صادق.. كي يتزوجها وأسعد في أخريات أيامي وأنا أحتضن حفيدي العزيز.. أتدري ماذا قال لي والدها... صديق الثلاثين عاماً.

ـ «في الحقيقة.. يا صديقي.. لا اعتراض على صادق.. فهو حقاً شاب تتمناه كل فتاة.. ولكن..

ـ ولكن ماذا.. هه.. تكلم بصراحة.. يا صديقي.. ولكن.. ماذا؟.

ـ أنت تعرف.. يا عزيزي.. تعليقات الناس.. والتي لا ترحم أحداً.. نحن لا نريد أن.. يتقولوا علينا.. بأننا.. تصاهرنا.. مع.. مع.. كذاب المدينة.. أنا آسف.. يا.. يا..».

ماذا.. كذاب المدينة.. كذاب.. أوه.. لك الحق يا صديقي.. نعم كنت كذاب المدينة حتى يوم أمس.. ولكنني.. صحوت.. نعم صحوت اليوم من وهمي اللعين ذاك.. تصوّر.. إن صديق العمر.. محمود.. الرجل المتزن.. يسجل ودون حياء.. أو ضمير.. حكاياتي المضحكة البريئة.. في دفتر خاص يحمله في جيبه.. ليشهر بي في كل مكان.. ودون أن يلقى مني غير الود والحب.. وطوال ربع قرن من الصداقة!! ما الذي جرى لهذا العالم؟. أبو صادق الطيب البسيط.. يلقّب.. بكذاب المدينة.. هيه.. هيه.. دنيا!!

في حركة غاضبة. عنيفة قذف بالمرآة بعيداً لترتطم بالجدار المقابل.. ولتتحول إلى نثار من زجاج لامع.. كان الوجه الآخر لأبي صادق قد تحطم هو الآخر.. وذاب في فضاء الغرفة الصامتة الموحشة..

أما الوجه الحقيقي له.. فقد كان مليئاً بحزن مدمر ثقيل.. دفن أبو صادق رأسه الأشيب بين ذراعيه النحيلتين.. وكان جسده الهش الصغير يرتعش ارتعاشات متواصلة.. فيخيل لمن يراه.. إنه.. كان يبكي!!

دار الآداب تقدم

وردة الندم

شعر

شوقي بزيع

قصائد خائفة

شعر

جودت فخر الدين